زغرودة للمطر ...

قصة بقلم عبد العزيز صدك

وضعت وفاء الطفلة على الارض ، واخرجت من حقيبتها ورقة مطوية ناولتها الى الخادمة الكهلة بصمت ، ففتحتها هذه ملقية نظرة صغيرة على الخاتم البنفسجي اسفل الحروف ، بينما كانت وفاء تحدق الى وجهها وهي تلهث لطول ما حملت شقيقتها ، ثم رفعت الخادمة عينيها ووضعتهما على وجه وفاء فوجه الطفلة التي كانت تتفحص هيكل الغريبة الغارق في البياض بحذر وخوف ، فامرتهما ان تجلسا مع الاخرين في قاعة الانتظار ، ودخلت هي بالورقة الى قاعة المعمل في الداخل ..

جلست الانسة متعبة ، واجلست الطفلة على فخذيها ، وراحت تتامل المنتظرين الاخرين .. كانوا ست نساء واربعة اطفال وشيخا ، وكانوا جميعا يتاملونها واختها بدورهم .. فسحبت عينيها عن وجوههم بشيء من الاضطراب والحياء ، ودارت بهما على مهل في المكان . كانت القاعة نظيفة لامعة لشدة نظافتها ، جدرانها مطلية بدهان زيتي فستقي اللون ، مؤزرة على ارتفاع قليل بذي لون ابيض .. وبالاضافة للمدخل العادي فثمة باب زجاجي يكاد ان ياخذ مكان الجدار كله يفضي الى معمل التحليل .

منذ يومين وهي تكد لتحصل على هذه الورقة اللعينة التي اعطتها للخادمة ، الترخيص الذي يسمح لها بفحص دم اختها مجانا في المخبر الحكومي . وها هي ذي اخيرا في المخبر .. فكم يوما ترى يتطلب الفحص ؟

ظهرت الخادم بوجهها الجاف المخدد لتعلنها ان ترتيبها الثامن ... فشكرتها ، وبعد قليل ظهرت مرة اخرى ، واعلنت بلهجة آمرة :

ـ ليدخل رقم واحد ، وبعد خروجه رقم اثنين ، هكذا ، بالترتيب، دون ان تعذبونا بالمناداة عليكم واحدا فواحدا ، مفهوم ؟

نظرت اليها وفاء باعجاب . ليت لها اسرة غير هذه ممن تسمح للبنت ان تشتغل .. اذن لحاولت ان تكون مثل هذه الموظفة .. لاشك في انها سعيدة !

وحين اختفت الخادم ، ظل بصر وفاء عالقا بالزجاج النقي .. كانت من مكانها ، تستطيع رؤية حيز واسع من المعمل ـ بعض الادوات ، زجاجية ومعدنية ، عجيبة الاشكال .. بعض القوارير في جزء من خزانة ، مجهرا.. وفي هذا الحيز برز هيكل ابيض من العنق حتى القدمين ، اما الراس فاشقر مثل الذهب .. امراة رائعة ، جلست خلف المجهر ، واحنت راسها ، وسكن جسمها على هذا الوضع بينما كان ذراعاها يتحركان حركات يسيرة محدودة المجال . فحدثت نفسها :

«هذه ولا شك موظفة كبيرة ـ انها تفحص ! يا الهي ، لو كنت مثلها!»

وفجاة قاطع المشهد الساحر جسم اخر .. كان فتى وسيما ، ذا شعر اشقر ايضا ، ويرتدي الرداء الابيض مثل غيره من الموظفين . تحدث الى زميلته نحو دقيقة ، ثم ابتسما لبعضهما وانصرف عنها مرحا . وتمنت وفاء لو تراه مرة اخرى . متى يحين دور اختها ؟ ولكن لماذا ـ لماذا تريد ان تراه ؟ فسخرت من اخيلتها الحمقاء ، وانبت نفسها : « يالي من مخبولة ! »

خرجت المراة ذات الرقم الاول بطفلها الذي كان يصرخ مفرقا وجهه بالدموع والعرق ، مما القى الذعر في قلوب الاطفال الاربعة ، وبعض النساء ، فترددت ذات الرقم الثاني قليلا قبل ان تدخل ، وكانت بمفردها دون طفل . فخاطبت وفاء اختها دون ان تسالها هذه :

ـ صبرا ياحبيبتي .. بقي امامنا خمسة .

وقبلتها في منتصف راسها ، وعادت تتامل السيدة الشقراء ، بذلك العجب والاعجاب اللذين لم ينقطعا لحظة واحدة مذ دخلت المخبر . فلما حان دور شقيقتها حملتها بلهفة الى داخل المعمل ، فهالها مارأته من الات وادوات ، وراحت تحملق بعينين متسعتين من الدهشة فيما حولها، كان ثمة مجهر اخر يعمل عليه رجل اسمر سمين ، والى منصة عالية ، في الوسط ، كان الشاب الوسيم جالسا دون ان يبالي بها ، مشغولا بعشرات من انابيب زجاجية صغيرة ملاى بالدم ، ومرصوفة على حاملات معدنية ، بيد ان الخادمة جذبت الطفلة من بين يديها بخشونة ووضعتها على كرسي بلا مساند وامسكتها من الخلف ، بينما تقدمت سيدة نحيفة جدا، بيضاء بلون القطن ، ذات شعر اسود قصير مثل شعر غلام ، ففرزت ابرة متصلة بانبوب زجاجي في ذراعها ، وصرخت الطفلة هلعا ، فصرخت بها الخادمة مؤنبة ، وحارت وفاء فيما يجب فعله ، والتفتت الى الشاب فوجدته ينظر الى الصغيرة باشفاق ..

اخرجت الطفلة بدموعها وعويلها ، وجلست على نفس المقعد ، مهدهدة اياها بين ذراعيها ، حتى نامت .

بعد ساعتين ، خرج الشاب الوسيم الى قاعة الانتظار ، وتمطى ، ثم جلس فوق مقعد خال ، واشعل تبغة راح يدخنها بهدوء ، وكان يبدو عليه الملل .

لم يكن قد بقي في المكان غير وفاء ، والطفلة في حضنها تغط في النوم ، وامراة مسنة . وكانت وفاء تسترق النظر الى الشاب بافتتان كلي . ارادت ان تساله عما اذا كان ينبغي لها الانتظار اطول من ذلك ، ولكنها لم تجرؤ .

وتنبه الفتى الى ان الفتاة مهتمة به ، فنظر اليها نظرة طويلة .. كانت عادية .. غير انه ادرك في عينيها السوداوين قلبا بكرا ، يذبحه شوق بائس ، واكتشف بعد هذا ان لها صدرا رائعا وثديين يستحقان المغامرة، وانها ناضجة جدا . سالها :

ـ مابها ، الطفلة اعني ؟

ـ لاادري ، ولكن الطبيب قال اننا يجب ان نفحص دمها ونعطيه النتيجة ..

شعرت بسرور عظيم وهي تتحدث اليه ..

ـ اهي ابنتك ؟

ـ لا ، شقيقتي .

ـ سأرى ان كنت أستطيع التعجيل بالنتيجة ..

ـ سأكون ممتنة لك جدا .

انتظرت بفرح مدة خمس دقائق فقط خرج الشاب على اثرها وفي يده ورقتها :

ـ النتيجة سلبية .. أعني ليس في دمها شيء يخشى منه .. تفضلي.

ـ سلمت يداك ، ياسيد .. انني لعاجزة عن شكرك .

ـ لا لزوم للشكر ، انا سعيد جدا بخدمتك .

ـ هل اذهب الان ؟

ـ بالطبع .. هيا ، فان الطفلة بحاجة الى سريرها .

كانت تود لو لم يشجعها على الذهاب ، لو تمسك بها ، وقال لها ان تبقى بجانبه والى الابد .. لماذا لايكون زوجها ؟ ما المانع ؟

وبعد ان سارت قليلا ، شاهدت عن كثب جمهرة من الناس حول عربة نفق حصانها في الطريق ، فهرعت تنضم الى المتفرجين . كان صاحب

العربة يكاد ان يبكي وهو يحدق الى جثة الحصان ، ولم يلبث ان جثا على ركبتيه يفك الاحزمة بهدوء يخفي خلفه عاصفة مكبوتة من الحزن .. انها لخسارة فادحة ولا شك ! وتمنت لو تستطيع ان تفعل شيئا من اجله ، ليس معها من النقود سوى بضعة فرنكات .

وعلى حين غرة سمعت صوتا تعرفه يستفهمها :

ـ انسة ! الم تزالي هنا ـ ماالذي حدث ؟

كان الشاب المخبري الذي ساعدها ، فدهشت وفرحت ، على انها اجابته باسى :

ـ انظر ، واأسفاه ! مات الحصان بينما كان يجر العربة .

ـ كلنا على نفس الطريق .. هيا بنا ..

وامسكها من ذراعها ، فاجفلت مبعدة الذراع عنه ، وسارت الى جانبه متسائلة :

ـ هل انتهى عملك ؟

ـ لا ، اجازوني بعض الوقت لشأن لي في دائرة الخزانة . اين بيتكم ؟

ـ في الدحداح .

ـ طريقان مختلفان للاسف ، ولكني استطيع مرافقتك حتى موقف « باص » القصاع .

ـ لاتتعب نفسك ، أشكرك .

ـ لاتعب اطلاقا ، يسعدني ان ارافقك ، الا اذا رفضت .

وحارت فيما تقوله لهذا الشاب الغريب . كانت تريده بكل كيانها . ولكنه غريب !

كانت تود لو جرؤت ان ترجوه لمرافقتها للابد . ولكنه غريب ! ثم انها امرأة وهو الرجل .. فهو الذي يجب ان .. ماذا ؟!

كانت وفاء في العشرين من عمرها ، لم يمسسها رجل غريب سوى الطبيب مرتين او ثلاثا . وكانت لياليها جحيما من الحنين واللهفة لذراعي رجل ، وانتظارا مؤلما ممضا في أمله لليوم الذي ترى فيه نفسها ذات زوج تحيا في ظله . لقد جنى عليها ابوها جناية قاسية .. رفض اول خاطب لانه فقير ، رفض الثاني لانه من بلد ناء ، والثالث لانه فقير ايضا ... وبعد ذلك لم يطرق بابهم رجل من اجلها .. بعد ذلك اصبح ابوها يتمنى اي رجل ، وقد رأى اليها مهددة بالبقاء عانسا ، معذبة ، حتى الموت ، وها هما شقيقتاها تلحقان بها لتجعلا من البيت محض مصيبة دائمة ..

ـ ماأسمك يا انسة ؟

ترددت قليلا ، ثم اجابته في حياء شديد :

ـ وفاء .

ـ بديع ... انا اسمي منير ساعاتي ، من الرقة .

ـ تشرفنا . مسلم ؟

ـ اجل ، مسلم .. اليس غريبا سؤالك ؟

ـ شكلك مثل شكل اجنبي ..

فضحك .. تفتحت كل خلية من جسدها لتستوعب ضحكته .. كانت ضحكة مليئة بالحياة ، خشنة مفعمة بالرجولة ، وعذبة .

ـ هل انت مخطوبة ؟

اجابته مسرعة :

ـ لا ، ابدا ...

وأوشكت في تسرعها ان تساله نفس السؤال ، ولكنه قال لها :

ـ وانا ايضا .. انني افتش عن بنت الحلال .

قالت له بقلب متوسل ، خجلة من ذلك :

ـ بنات الحلال كثيرات

ـ حقا ؟ لأرى ذلك .

ـ فتش .

ـ انني افتش .

وهتفت في ذات نفسها : «أولم اعجبك ؟ »

شعرت بمهانة افسدت عليها سعادتها . على انه لم يلبث ان قال لها وكأنه يتابع حديثه :

ـ انني غريب ، كما علمت ، لااعرف احدا .. فكيف اخطب واحدة لااعرف عنها شيئا ؟ ولكن مارأيك ، مادمنا قد تعارفنا ...

خفق قلبها بفرح رائع ..

ـ ... هل تساعديني في العثور على بنت الحلال ؟

وعادت تعاستها تغتصب روحها من ذلك الفرح المغرور ، المتهافت في الحقيقة :

ـ بكل سرور . اعرف كثيرات .. بيد اني افضل اثنتين من بين كل اللواتي اعرفهن ...

كانت تتكلم بجهد أثقل لسانها ، وتغص بلعابها . وكان هو يتأملها بخبث متمتعا بتموج الالوان المنعكسة من صراع عنيف داخل نفسها على وجهها. وتجلدت :

ـ اجل ، مادمت قد وضعت ثقتك بي ، وانت شاب تستحق الخير، فلن اكون متحيزة او استغلالية اذا رشحتهما من اجلك .. انهما شقيقتاي .

ـ شقيقتاك !

ـ أي نعم .. جميلتان ، فاضلتان . احداهما في السابعة عشرة والثانية في الخامسة عشرة .. والحقيقة ان الصفري اليق بك ، كأنما خلقت لك .. رشيقة مثل غزال ، وذكية ، ومرحة ، وهذه هي الصفات المفضلة لديكم ، شباب هذا الزمان .. اليس كذلك ؟

ـ ليس كذلك ، بالنسبة لي على الاقل .. استمري .

ـ وهما تجيدان اعمال البيت والخياطة والتطريز ، بالاضافة الى انهما تعزفان على العود اذا كان يسرك ان تعلم هذا ايضا ..

ـ حسن جدا ، وانت ؟

ـ وانا ايضا ...

صدر حديثا :

الطبعة الثانية من ديوان

قصائد عربية

للشاعر سليمان العيسى

دار الاداب ـ بيروت

كان جوابها سريعا ، وبلهجة تنم عن تاكيد كانه قسم . وقد كان هو لايني يلصق كتفه بكتفها ، وكانت هي تبتعد عنه كلما تنبهت الى هذا الوضع ، برغمها ، وهي اكثر رغبة منه فيه ، ولكنه غريب ، وهما يتحدثان عن اختيها ، كانها ، هي ، ليست محسوبة في هذه الدنيا .. لقد كبرت .. تكاد ان تكون في مثل سنه !

توقف عن السير ، فتوقفت هي الاخرى ، وتواجها ، مثبتا عينيه في عينيها ، ساكبا فيهما سحر الحياة ، قويا ، فتدافعت نفسها الى عينيها في امواج صاخبة ، وثابة ، تريد ان تتسلق نظرته الى عينيه فنفسه حيث تذوب فيها .

ـ وفاء .. لقد عرفتك انت ، دعيني من شقيقتيك ـ واعجبتني ... اريدك انت .. الم تفهمي مذ غادرت عملي لالحق بك ؟

لم تصدق ، ولكنها تلقت كلماته بفرح شل عقلها فلسانها لجبروته ، وخفق قلبها خفقات قوية سريعة اوشكت ان تقضي عليه . وتداعت عيناها من على وجهه فوق الارض ، بين قدميه ، تستريحان من العناء ، تتواريان خلف جفنيهما حياء .

فكر : « انها ليست رخيصة ، ولكني جائع ، الرغبة عذاب ، فلماذا اعذب نفسي مادمت استطيع رفض عذابي ؟ »

سالها متجاهلا :

ـ الا اعجبك ؟

ترددت .. لكن خوفها الساحق من افلات الفرصة من يدها حرك لسانها وعينيها فرف هدبها عن نظرة خاطفة الى وجهه :

ـ العفو .. انت تعجب الاميرات .

ـ حسنا ، اتفقنا اذن . هل نلتقي هذا المساء في مكان ما ؟

ـ اخشى الا استطيع مثل هذا الامر .

ـ لماذا ؟

ـ اخطبني اولا .

ـ يجب ان اعرفك جيدا قبل هذا ..

ـ الخطبة هي السبيل لذلك .

حاول اقناعها جاهدا لكي تقبل برايه ، دون جدوى . وتابعا السير صامتين ، خائب الرجاء ، وسعيدة تهزج روحها بلحن غني شجي . وحاول التملص :

ـ يجب ان اكون صريحا ياوفاء .. انا فقير لا املك سوى مرتبي الشهري وهو حقير جدا ،وليس لدي وفر من اجل المهر ، ولا حتى امكانية التوفير .

ـ لاتقلق ، فنحن لانتاجر ، ونريد الستر فضلا عن هذا .. سنساعدك تماما ..

ـ وكيف ؟

ـ بعد الخطبة نعطيك غرفة من بيتنا لنومك ، وتشاركنا الطعام ، ونغسل ثيابك ونكويها .. فيتوفر لك ماتصرفه على كل ذلك ، ويكون بعد اشهر قليلة كافيا ..

ـ الواقع انكم غاية في النبل .

ـ مصلحتنا هي مصلحتك . قد لايعيبك ان تبقى عازبا لانك رجل .. اما المراة فيجب ان تتزوج ، لان سترها في زواجها .. فاذا كان المال عائقا لك فينبغي لنا التعاون على تذليله ..

وعادت تسهب في الحديث عن طريقة هذا التعاون ، بينما كان هو مطاطئا راسه .. شعر بالخزي : كيف فكر بخداع مثل هذه الفتاة ؟

وصلا من شارع بغداد الى حيث المنعطف المؤدي الى الدحداح ،فتوقفت وفاء قائلة :

ـ انني لاسفة يامنير .. لابد من افتراقنا هنا ، انت تعرف التقاليد ، فاذا رآنا اهل الحارة معا .. يجب الا يرونا معا ..

كانت نظراته تنبش الارض كانما تبحثان عن الكلمات اللبقة التي يعترف بها للفتاة انه لايبغي الزواج ، انه اراد خداعها ، استغلال سذاجتها لسد جوعه وملء فراغ نفسه .

لاح للفتاة ان فكرة الافتراق قد احزنته هو الاخر ، فتفاقم حزنها ، وشعرت بحنان يتفجر من قلبها نحوه ، فتفكرت قليلا ، ثم قالت له :

ـ اسمع .. سأسير انا ، وسر انت ورائي ، تاركا بيننا مسافة لاتوحي بالشك .. وبهذا تعرف البيت .. فاذا اردت فاحضر قبيل صلاة العشاء ، حيث يكون ابي في المسجد ، كي تتعرف الى امي .

اطاعها بلا تفكير في نفع الاستمرار في التمثيل .. كان يريد ان يتخلص من ورطته دون ان يعرف كيف . وقبل ان تدخل احد المنازل الفقيرة في زقاق ضيق متعرج ، عفن ، التفتت تنظر اليه نظرة تقول :

ـ هو ذا البيت .. نحن بانتظارك .. فالى اللقاء .

وظل الفتى متابعا طريقه ، يحز الندم في نفسه . وبوجه مشرق مثل صباح مشمس بعد ليلة ممطرة ، افضت وفاء لامها بما تم من اتفاق بينها وبين الشاب الوسيم ، مبالغة في اهميته بنعتها له « مساعد طبيب » .. فاحتضنتها الام تقبلها ، ثم لم تتمالك ان تنتظر فزغردت ..

أطلت جارة تستطلع الامر . وانتقل الخبر بسرعة حتى عم الجيران جميعا ، فتوافد بعض النسوة والفتيات منهم يهنئن الام وابنتها ..

باتت الاسرة تنتظر ، ووفاء تخفف من وطاة الوقت باعادتها تفاصيل القصة بين ساعة واخرى ، مسهبة ، واصفة شكل فتاها بدقة ..

غير ان الليلة تلاشت خلف وجوم وتعجب .. ومرت الايام تترى ،عجفاء كمهدها ، والكل يتساءل عن سبب اطالة مساعد الطبيب غيبته ، حتى اذا ما اقلعوا عن السؤال يائسين ، اقلعت وفاء عن الجواب الدائم : « للغائب حجته » . ومن اعماق قلبها البائس قفز سؤال لياوي في عقلها مثل سرطان خبيث : عما حدث للشاب فحال بينه وبينها ، او عما يمكن ان يكون بدر منها من خطأ ، عن غير قصد ، فنفره !

دمشق — عبد العزيز هلال

مجموعات الآداب

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الثماني الاولى من الاداب تباع كما يلي :

	غير مجلدة	مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٩٥ ل.ل	١٠٠ ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الخامسة	٢٥ «	٣٠ «
« « السادسة	٢٥ «	٣٠ «
« « السابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الثامنة	٢٥ «	٣٠ «